المهندس الصغير

تأليف: عماد حسن الشافعى
رسوم رانيا الجزار

مكتبة الإيمان بالمنصورة - بجوار جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« المهندس الصغير »

يُحكى أن غُلاماً اسمه«سَنَدُ بن علىّ» فى عصر المأمون كان شغُوفاً بالقراءة، وكان يُحب الحساب والفلك، وكان يعشق جداً الكُتب.

ولأن والده كان فقيراً، فقد كان الغلام يذهب إلى حىِّ الوراقين فى بغداد ليعمل فى دكان هناك مُقابل دراهم معدودات، ومُقابل أن يُسمح له بقراءة الكتب.

وكانت هذه الدكاكين مثل المكتبات والمطبعات فى عصرنا، حيث ينسخون الكتب بكتابتها على الورق بخطٍ جميل، ثم يجلدونها ويبيعونها.

وأحب الغلام عمله.. حتى أن رائحة الأحبار والأوراق كانت تُثير هِمتَّه، وتأسِرُ قلبه، وتجعله يقضى اليوم كله فى القراءة والمطالعة دون أن يشعر بالجوع، أو بالعطش.

قرأ الغلام كتاب«إقليدس»فى الهندسة مرةً ثم مرة، حتى أحاط به علماً وفهماً وقرأ كتاب «المِجَسطى» فى الفلك وأعجبه أيضاً.

كان كتابُ المجسطى كتاباً قيماً، وكان الورَّاقُ يبيعه بعد تكامل خطه، وأشكاله وتجليده بعشرين دينارٍ.. مبلغٌ كبير لم يقدر عليه الغلام.



وذهب الغلام إلى أبيه يطلب منه أن يشترى له هذا الكتاب النفيس لكى يعكف على قراءته ودراسته فى البيت.

فقال له الأب وهو حزينٌ: يابُنى ليس معى هذا المال الآن، ولكن انتظر حتى يُيسر الله الحال.

وانتظر الغلامُ، وطال انتظاره.. و لكن لم يتيسر الحالُ.

وكل يوم كان يمر يزداد فيه الغلام تعلقاً بالكتاب، وشَغَفاً بالقراءة.

وذات يوم كان الغلام مع أبيه فى سفر، وكان ينتظره خارج الدار حتى يخرج من عند صاحبه.

وجلس ينتظر وينتظر، وأخيراً خرج إليه غلمان وقالوا له: يمكنك أن تنصرف الآن، لأن أباك سوف يُقيم عند مولانا قليلاً.

فركب الغُلام الدابة ومضى بها راجعًا إلى قريته.. وفى الطريق كان يفكر فى هندسة إقليدس، وفى مسائل المجسطى فى الحساب والفلك فيطير فَرَحاً، ثم بعد قليل يتذكر فقره فيزداد غَمّاً وهَمّاً.

ويقول: آه!. لو كان أبى ميسوراً لتمكنت من شراء هذا الكتاب ومن دراسته ومذاكرته.

كان الغلامُ يسيرُ بين السهول والجبال، وفجأةً لاحتْ له فكرةٌ مجنونة..


المجسطي

وهى أن يبيعَ الدابةَ التى يركبها، ويشترى من ثمنها كتاب المجسطى فى الحساب والفلك.

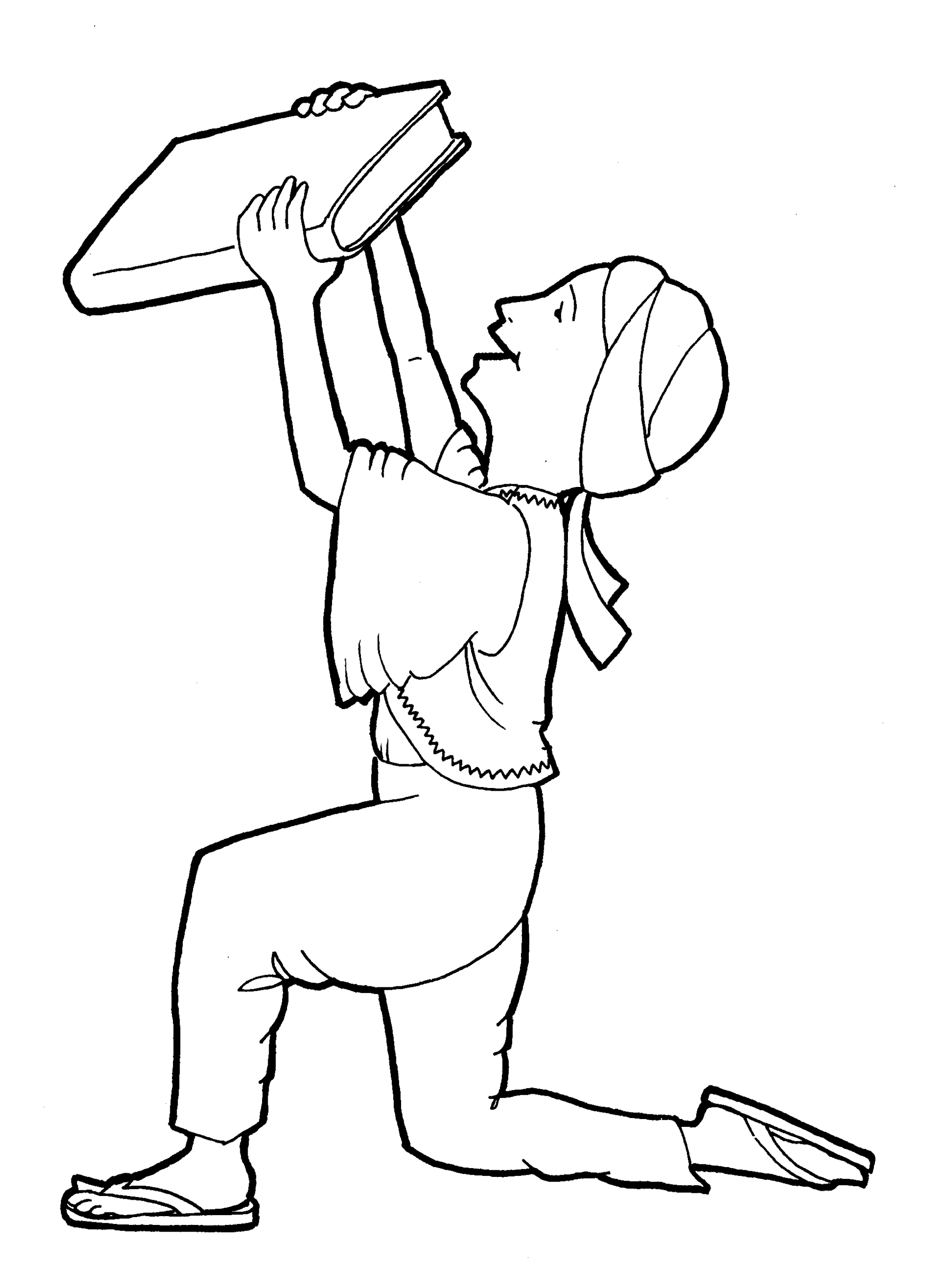
ودخل القريةَ، قاصداً السُوقَ، حيث باع الدابة بسْرجها ولجامها بأقل من ثلاثين دينار ثم توجَّه إلى الشيخ معروف فى دكانه، وسلَّمه عشرين ديناراً، وتسلَّم الكتاب.

خرج الغلامُ من الدكان وهو يضمُّ الكتاب إلى صدره ويطير من الفرحة، ويُحدِّث نفسه: أخيرًا أصبح كتاب المجسطى فى الحساب والفلك ملكى آخذه معى أينما أذهب، وأقرأ فيه وقتما أشاءُ، يارب لك الحمد.

ورجع «سند» إلى بيته ماشياً، وطوال الطريق وهو يفكر ماذا سيقول لأمه المسكينة؟ وكيف يواجه أباهُ الفقير؟! وضمَّ الكتاب إلى صدره بشوقٍ وهو يقول لاضَيْر .. ليفعلْ الله ما يشاءُ... وليَحدُثْ ما يحدث .. فالمهم عندى الكتاب!

دخل الغُلام على أمه وهو يقول لها: قد جنيتُ عليكم يا أمى جنايةً عُظمى.. وقصَّ عليها الحكاية، ورجاها ألا تُخبر أباه بالأمر حتى لا يضطر إلى تَرْكِ البيت وهَجْرِ الأسرةِ إلى مكانٍ بعيد لايمنعه فيه أحد من قراءة الكتاب بتركيز وتَدَبُّر.. وناولها بقية ثمن الدابة.

وكانت للغلام غرفةٌ فى سطح البيت، وكان يُغلقها على نفسه حينما يقرأ أو يصلى.



وقال لأمه: أنا سأغلق على نفسى غرفتى وأرضى منكم كل يوم برغيف أو رغيفين يُلْقى إلىَّ كما يُلقى إلى المحبوس، حتى أفرغَ من قراءة هذا الكتاب كله.

وأشفقتْ الأم على ولدها، وقالت بأسىً: يابنى لِمَ كلُ هذا التعب ألا ترحم نفسك من عناء القراءة، ومن تعب المذاكرة . . ألا تبحث لك ياولدى عن عمل أجدى عليك من هذه القراءة التى حببت إليك السهر وجعلتك ضعيفاً هزيلاً؟!

نظر «سند» إلى أمه الحزينة، وقبَّلَ رأسها بحنان وقال: اصبرى يا أماه. . فهذا التعب، وهذا السهر فى طلب العلم لن يُضيِّعه الله أبداً، ولن يجعله الله هباءً منثوراً.

وصعد إلى غرفته، وأغلقها على نفسه، ثم توضأ وصلى، وجلس يقرأ فى الكتاب.

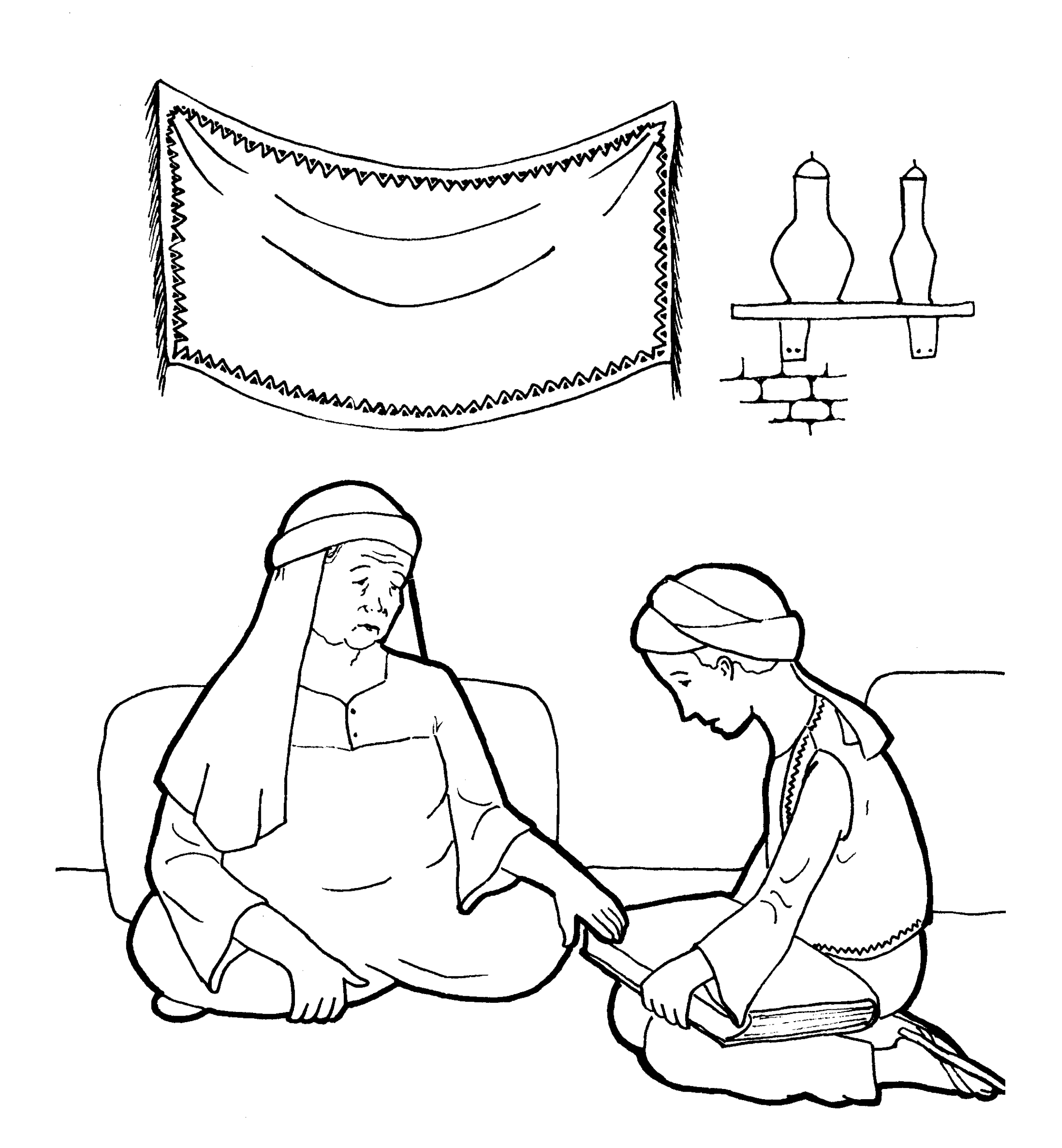
وعلم الأخ الصغير«لسند» بحكاية الدابة، فأسرع إلى أبيه عند القوم الذى كان عندهمً، وأسرَّ إليه الخبر، فاغتمَّ الأبُ وتغيَّر وجهه، وتلجلجَ فى حديثه.

فقال له من كان يحادثهم: ما الحكاية ياشيخُ علىّ، وما سبب غضبك هكذا وتغيُّر وجهك؟

فقال وهو يهز رأسه ويشير بيده: أبداً لاشىء. . لاشىء!

فقالوا: بالله إلا أخبرتنا؟

فأخبرهم أن ابنه باع الدابة التى لا يملك غيرها من أجل أن يشترى بثمنها كتاباً.



فتهلل وجه الرجل ـ صاحب الدار ـ وقال: والله هذا يَسرُّنا فى ولدك. . فتعهده ياشيخ بالرعاية، وبكل جميل ـ ولا تَبْتَئِس ولا تحزن، ثم قام الرجلُ ـ صاحب الدار ـ ونادى على غلامه: أن أحضر البَغْل والسَرْجَ. .

خرج الغلام مُسْرِعاً ثم جاء ببغلٍ فتىّ، وبسَرْجٍ جميل.

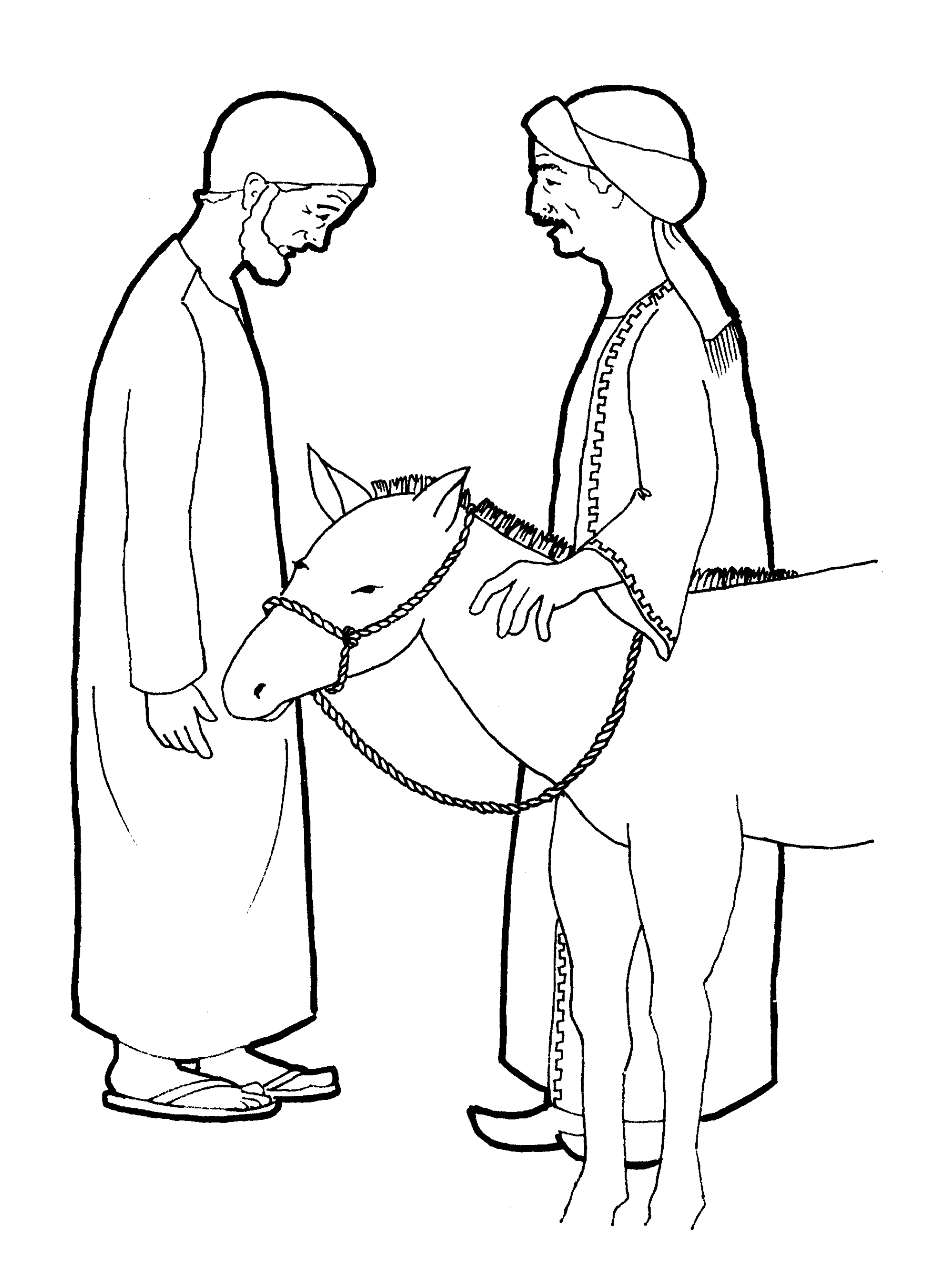
فقال الرجل للشيخ علىّ وهو يودِّعه: هذا البغل هو هديتى لك من أجل ولدك . . اركبْ البغلَ ولاتُكلِّم ابنكَ بحرفٍ وسيكون له إن شاء الله شأنٌ عظيم. .

ومرت الأيامُ والشهوُر والغلامُ عاكفٌ على قراءة الكتاب ودراسته، ويُواصل سهرَ الليل بساعات النهار. وكان كلما استوقفه شىء أو استعصى عليه فهمٌ، نهَضَ يمشى فى الغُرفة ذهاباً وإياباً حائراً مفكراً، وعندما يتوضأُ ويصلى ركعتين كانت نفسه تهدأ، وكان ذهنه يصفو، فيفكُر بعمقٍ وهدوءٍ.

وظلَّ الفتى على حاله زاهداً فى الحياة إلا من طعامٍ يسير، ومَلْبَسٍ مُتواضعٍ، وبقى على هذا الحال ثلاث سنوات حتى بلغ عمره سبعة عشر عاماً. أتم خلالها كتاب المجسطى فى «الرياضيات والفلك» قراءةً ودراسةً وفَهْماً.

بل إنه ابتكر أشكالا هندسية لم تكن موجودة، وحلَّ مسائل كانت صعبة جداً.

وجمع أوراقه هذه ـ التى تُعَدُّ ثمرة كفاحه وتعبهِ وسهره، وضمَّها إلى بعضها فى كُراسات.



ثم خرج يوماً يسألُ الناسَ: هل للمهندسين وعلماءِ الحساب والفلك موضعٌ يجتمعون فيه فقيل له: نعم لهم مجلس فى دار «العباس بن سعيد الجوهرى» صاحب المأمون، حيث يجتمع فيه كبار العلماء.

فأخذ الفتى كُراساته فى الحساب والفلك، وذهب إلى هذا المجلس.

وعندما نظر إلى الحاضرين، أصابه التوتر والقلق، إذ كان جميع من حضر المجلس من المشايخ وأكابر القوم، ولم يكن فيهم ولابينهم شاب، أو فتىً صغير السن إلا هو.

وعندما لاحظ العباسُ صاحبُ الدار حيرةَ الفتى وارتباكه، تقدَّمَ نحوه وسأله: ياهذا من تكون.. وما الذى جاء بك إلى هنا؟

فقال «سند»: أنا ياسيدى كما ترى غلام يحبُ علم الهندسة والحساب .

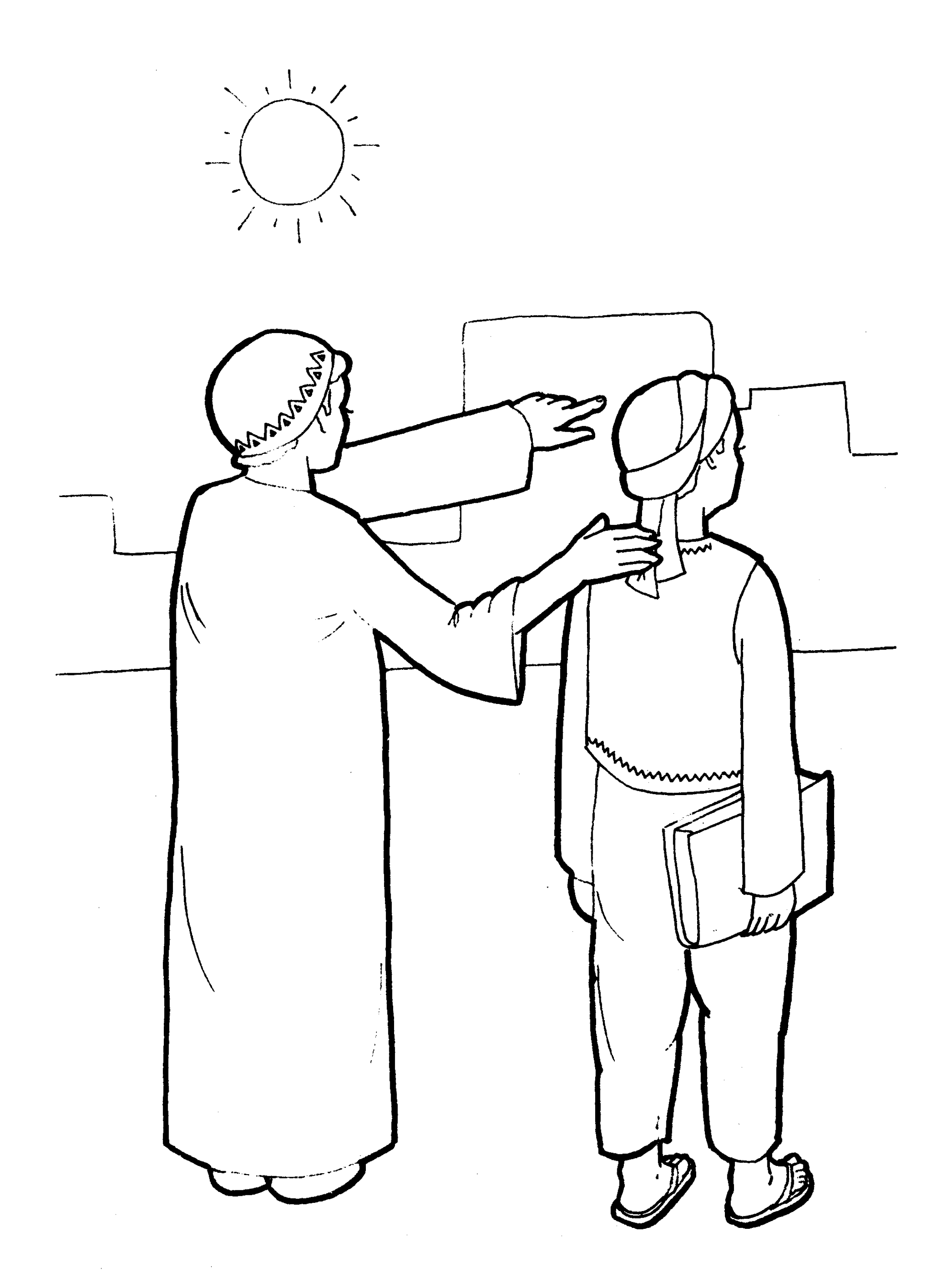
قال له العباس: وماذا قرأت؟

قال الفتى: قرأت كتاب إقليدس فى الحساب، وكتاب المِجَسطى فى الفلك.

دُهش الرجلُ وقال: قراءةً عابرةً.. أم قراءةَ إحاطةٍ؟

قال الفتى: بل قراءةَ إحاطةٍ وَفَهْمٍ ياسيدى.

فسأله العباس عن مسألة فى كتاب المجلسطى كانت من



المسائل الصعبة جداً.

فقال الفتى: إن تفسيرها وحلَّها معى فى هذه الكراسات.

وأخرج له كراساته، وراح يشرحها له.

فعجب العباس وقال: من الذى أفادك هذا الجواب والتفسير؟

قال الفتى: هذا التفسير ثمرة تفكيرى، ولم أسمعه من غيرى.. وهو وغيره فى هذه الأوراق التى سهرت فى كتابتها.

فاضطرب العباسُ وتغيَّر وجههُ، ونادى على خادمه: ياغلامْ.. ياغلامْ.. إئتنى بالسَفَطِ(وهو وعاءُ مثل القُفَّة كانوا يضعون فيها الكراسات والأوراق والكتب).

فجاء الغلامُ بها، فنظرالرجلُ إليها فوجدها كما هى بحالتها لم يمسسها أحد بسوء، ففتحها وأخرج منها مذكراته وأوراقه، وجعل ينظرُ فيها، ويقارنُ بينها وبين كُراسات الفتى.

فكان الكلامُ الذى كتبه أحسنَ مما كتبهُ الفتى «سند» غير أن المعنى واحدٌ.

وفجأةً صاحَ العباسُ بسعادة: مُدْهش.. أنت فتىً هائلُ..

ثم أَرْدَفَ قائلاً ـ مشيراً لأوراقه: هذه مسائل توليتُ حلَّها وشرحها بنفسى فى هذه الأوراق.. وعندما جئتنى بكراساتك التى فيها حل لمسائل كتاب المجسطى.. ظننتُ أنها سُرقت منى. حتى تبينتُ اختلافَ اللفظِ مع اتفاق المعنى.


الله

وعَّرفه العباس بالمشايخ العلماء البارعين فى الرياضيات والهندسة، والفلك، وعرفهم به قائلاً: اليومَ أُقدم لكم المهندس الصغير«سند بن على» زميل جديد لنا وقد دَرَس كُتب إقليدس والمجسطى. . فرحبوا به ودارت بينه وبينهم مناقشات علمية، وهُمْ يبالغون فى حفاوته وإكرامه.

وفى اليوم التالى أدخلوه على الخليفة«المأمون». . الذى سلَّمهُ جائزةً مالية كبيرةً فقد كان«المأمون» يُكرِّمُ العلماءَ، ويرعاهم. .

وأصبح الفتى«سند بن على»من يومها أصغرَ عالمٍ ومهندسٍ فى مجلس المأمون، وأصبح له ـ كغيره من المشايخ العلماء ـ راتبٌ شهرى من بيت المال.

ورجع الفتى إلى أمه المسكينة،وأبيه الفقير بالجائزة المالية، وهو يقول لهم: خذوا من هذا المال ما شِئْتُم. . فهذا ثمرةُ صبرِكُم علىَّ.

وقبلته الأم، وهى تقولُ: نعم يابُنَىّ إن الله لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً، فقد تَعِبْتَ فى القراءة وسَهِرتَ كثيرًا. .

وقال الأب، بعد أن عانقه: لقد شَرَّفتنا كثيرًا يا ولدى. . والحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين «المأمون» يُحب العلم، ويُحب العُلماء. .

« تمـــت »